

آية قرآنية

للدكتور حامد طاهر

بينما كنت أصغى

كعادتي في السنوات الأخيرة

إلى تلاوة الشيخ الملائكى

عبد المباسط عبد الصمد لسورة (المؤمنون)

إذا بي أتوقف طويلا

أمام تلك الآية الكريمة :

(أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا ،

وأنكم إلينا لا ترجعون) [115]

والتي يخاطب بها الله تعالى

الكفار والمشركين والملاحدة

بأسلوب الاستفهام الاستنكاري

الذي توصلت إليه البلاغة العربية فيما بعد

وجاء على أعلى درجة من الإيجاز

الذي يستخدم ألفاظا قليلة

لتوصيل معان كثيرة

ومن الواضح أن الآية الكريمة

تتناول قضيتين من أهم القضايا

التي كانت — ولعلها ما زالت —

موضع شك وإنكار من غير المؤمنين .

والقضية الأولى هي التي تتعلق

بالغاية من الخلق

وأن هذه الغاية مقدرة تقديرا محكما

اقتضته المشيئة الإلهية

منذ خلق الإنسان في الكون

وإنزاله من الجنة إلى الأرض

ليكون خليفة الله تعالى فيها

(إنى جاهل في الأرض خليفة) [المبكرة 30]

مع تسخير كل ما في السماوات والأرض له

وإسباغ نعم الله عليه ظاهرة وباطنة

ومن أهمها نعمة العقل

الذي يميز به بين الحق والباطل ،

وبين الخير والشر ،

وبين الإيمان والكفر ..

ودعوته في نفس الوقت

ليقابل ذلك بعبادة الله وحده

وعدم جحدّه أو الإشرالك به

(إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى) [طه41]

ولكى يساعده فى ذلك

أرسل إليه الرسل بالمعجزات الدامغة ،

والمحجج الواضحة ، والبيان الشافى

ليأخذوا بيده إلى الصراط المستقيم

وينقذوه من الوقوع فى مهاوى الهلاك

ثم بعد ذلك كله

راح أهل الضلال والكفر

يزعمون أن خلّقهم مجرد من الغاية

خال من الحكمة

كما زعموا أنهم إنما يموتون ويحيون

ولما يهلكهم إلما الدهر

(وقالوا ما هي إلما حياتنا

نموت ونحيا

وما يهلكنا إلما الدهر) [الجاهلية²⁴]

مع أن الدهر هو الزمن الذى يمر عليهم

دون أن أن يكون له دُخْل فى إحيائهم أو موتهم !

لقد ارتكبوا جريمتين فى حق أنفسهم ،

وكذلك في حق من اتبعهم :

الأولى أنهم أوقفوا عمل العقل

الذي كرمهم الله به

وفضّلوا عليه اتباع آياتهم وأسلافهم

الذين كانوا على ضلال مبين .

والثانية أنهم كذبوا المرسل

الذين جاءوا لمساعدتهم

بل إنهم نكّلوا بهم ، وقتلوا بعضهم أحيانا !

أما القضية الأخرى المشار إليها في الآية

فهي إنكار البعث

والمبعث يعنى ببساطة : الإحياء من الموت

وفيه يجمع الله تعالى جميع المخلُق

ليحاسبهم على ما فعلوه فى هذه الدنيا

من عمل صالح جزاؤه الجنة

أو عمل شرير جزاؤه جهنم .

والدليل على المبعث سهل جدا

فالإنسان مثل الكون لم يوجد نفسه

كما لم يوجد من العدم

بل أوجده الله بعد أن لم يكنْ

ويذكر القرآن أن الله خلق السماوات والأرض

فى ستة أيام

(وإن يوما عند ربك

كألف سنة مما تعدون) [الحج 47]

والبرهان على خلُق الإنسان

أوضح من أن نتلمس له الحجج والبراهين

فهو يبدأ من نطفة من ماء مهين

ثم يتدرج في مراحل التكوين

حتى يستوى شخصا مكتملا

ثم يشيخ فيصبح عجوزا متهالكا

إلى أن تحين لحظة وفاته

فيدفن في باطن الأرض

التي خلق في البداية الأولى من بعض عناصرها

والله تعالى هو واضع هذا النظام الذي لا يتخلّف

وهو المهيمن عليه

وكما أنه بدأه .. فهو المقادر على إعادته

(أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه

بلى قادرين على أن نسوي بنانه) [المقيامة4]

وهنا يؤكد القرآن الكريم

أن إعادة الإحياء أسهل من البدء به

(وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ،

وهو أهون عليه) [الروم27]

والواقع أن المعتقد في المبعث

هو أحد أهم أعمدة الإيمان

ولولاه لما صح وجود نظام أخلاقي

يحافظ على القيم ، ويحول دون الفوضى .

وهكذا تقرر الآية الكريمة

أننا لم نخلق عبثا

وإنما لغاية إلهية محكمة

وأننا لابد راجعون إلى الله

في حالة بعث كبرى ومؤكدة

(كما بدأنا أول خلق نعيده

وعدا علينا إنا كنا فاعلين) [الأنبياء104]

وسوف نكون حينئذ فرادى

(وكلهم آتية يوم القيامة فردا) [مريم95]

فلا جماعات ، ولا عصبيات

ولا ثروات ، ولا مناصب

(يوم يضر المرء من أخيه ،

وأمه وأبيه .

لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) [عبس34،35]

صدق الله العظيم .
